



مجلة الباحث

مجلة فصلية ، تخصصية ، محفمة تعنى بدعم الفكر الإنساني ودراسته
المشكلات الإنسانية والتراح الحلول لها وتوفير مجالا للنشر العلمي المحكم
للبحوث الإنسانية تصدرها كلية التربية للعلوم الإنسانية - جامعة كربلاء



توجه جميع المراسلات باسم مدير التحرير على العنوان الآتي:

مجلة الباحث- كلية التربية للعلوم الإنسانية

جامعة كربلاء- محافظة كربلاء- العراق

هاتف: ٠٠٩٦٤٦٠٧٨١٢٩٨٠١٨٤

جميع الآراء الواردة في المجلة تعبر عن وجهة نظر
كاتبها

الرقم الدولي: 2222-3002-ISSN

رقم الإيداع في دار الوثائق والكتب : ١٥٧٢

**ملاحظة: كانت طباعة البحث في هذا العدد من مجلة الباحث
سنة والهوامش متداخلة مع المتن وذات أرقام عشوائية لذا
أرقيت الاكتفاء بثلاثة أوراق من العدد ، وإيراد البحث بحسب
طباعة الورد.**

Ministry of Higher Education
and Scientific Research
University of Karbala college
of Education for the Human
Al-Bahith Quarter



وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة كربلاء
كلية التربية للعلوم الإنسانية
مجلة الباحث

التاريخ ٢٧ / ١٠ / ٢٠١٣

العدد ٢٨٧/



إلى / أ.م.د. حسن عبد الغني الاسدي المحترم

أ.م.د. رجاء عجيل إبراهيم المحترمة

م / قبول نشر

تهديكم هياة مجلة الباحث الإنسانية المحكمة- كلية التربية للعلوم الإنسانية
جامعة كربلاء أطيب تحياتها ويسرها إن تعلمكم بأن بحكم الموسم:

{ الحاج بمفهوم المنزلة عند سيبويه (مقاربة في أصول التفكير النقوي) }

تقرر قبوله للنشر في العدد القادم- من المجلة الذي سيصدر قريبا .

أ.د. زمان عبيد وناس

مدير التحرير

٢٠١٣/١٠/٢٧

ISSN 2222-3002

مجلة الباحث



العدد العاشر ٢٠١٤

مجلة الباحث

المحتويات		
رقم الصفحة	اسم الباحث	عنوان البحث
٢٩_٧	أ.د. اياد عبد الحسين صيهود الخفاجي رغد حميد ساجت	سياسة الرسول (ص) العسكرية من خلال كتاب تاريخ الرسول والملوك للطبري (غزوة بدر واحد أنموذجاً)
٤٣_٣٠	م.د. عبد علي كاظم جلاب الفتلاوي	معوقات ترجمة النصوص الادبية من العربية الى الفارسية
٧٢-٤٤	أ.م.د. سلام هاتف احمد الجبوري	التحليل الجغرافي لخصائص امطار مدينة كركوك
٩٧-٧٣	أ.م.د. علي صكر جابر الخرزاعي ختام محمد حسن عباس	قلق التصور المعرفي لدى طلبة الجامعة
-١٠١ ١٢٨	م.د. احمد عبد الستار عبد الواحد	اثر طريقة روثكوف في تحصيل وتنمية التفكير الاستدلالي لطلبة الصف الرابع الاعدادي عند تدريس مادة التاريخ
-١٣٣ ١٥٥	أ.م.د. رجاء عجيل الحسناوي أ.م.د. حسن عبد القني الاسدي	الحجاج بمفهوم المنزلة عند سيبويه (مقاربة في اصول التفكير النحوي)
-١٥٦ ١٨٢	أ.م.د. سهيلة محسن كاظم الفتلاوي	المشكلات التعليمية التي يواجهها الطلبة الجامعيين المستجدين بكلية التربية الاساسية جامعة واسط
-١٨٣ ٢٠٣	أ.م.د. رياض محمد علي عودة المسعودي أ.م.د. ندى نجيب سلمان الداودي أ.م.د. مكي عبد مجيد الربيعي	النمو الحضري والسكاني ودورهما في مستوى الجريمة في مدينة كربلاء (تحليل مكاني)
-٢٠٤ ٢٢٤	رفاه مهدي علي ايات محمود شاكر	التصلب الفكري وعلاقتة بالاتزان الانفعالي لدى طلبة كلية التربية
-٢٣٢ ٢٦٧	أ.عزيز كاظم النايف سناء عبد الامير موسى	اثر استراتيجيات عظم السمكة في اكتساب مهارات التفكير التاريخي لدى طالبات الصف الثاني متوسط
-٢٨٢ ٣٠٩	م. موسى كاظم المعموري	قياس الرضا الوظيفي لدى معلمات مادة القراءة في محافظة بابل
-٣١٨	م.د. زين العابدين موسى ال-	نظرة على تاريخ مدينة كربلاء حتى سنة (١٦٥٦هـ)



الحجاج بمفهوم المنزلة عند سيبويه (مقاربة في أصول التفكير النحوي

أ.م.د. رجاء عجيل الحسناوي
جامعة كربلاء/ كلية التربية للعلوم الإنسانية

أ.م.د. حسن عبد الغني الأسدي
جامعة كربلاء/ كلية التربية للعلوم الإنسانية

Pilgrims to the concept of status before Sibawayh
(thinking approach in assets grammar
A. M. D. Rijaa Ajil al-Hasnawi
Karbala University / College of Education in the
Humanities

A. M. D. Hassan Abdul-Ghani al-Asadi
Karbala University / College of Education in the
Humanities

ملخص البحث:

حجاجي قَدَمه سيبويه بين يدي
متلقيه في إثبات حجته وراجحة ما انتحاه

وقد استقر تناول موضوع بحثنا
على ثلاثة مباحث:

الأول: الأساس الأصولي (المعرفي)
في استعمال لمنزلة.

الثاني: المنزلة والتمثيل: قياس في
الافتراض الدلالي للكلام ومكوناته.

ما زال سيبويه يمدنا بفكره الرصيد
وتأمله العميق بمسارات دقيقة نعمل بها
على إعادة فهمنا له، وفهمنا للكيفية التي
تحلّل بها أنماط الاستعمال اللغوي، وقد
وجدنا أنّ محوراً من محاوره المهمة في
التحليل النحوي كان استعماله للفظ
المنزلة وهو يحاول أن يقدم تصوّره أو
تصوّر أستاذه الخليل في هذا الموضوع أو
ذاك من كلام العرب. ولقد كان تردد هذه
اللفظة من الكثرة بمكان أن يلفت الانتباه،
فعمدنا إلى تخصيص بحث مستقل للكشف
عن المفهوم السيبويهي الذي أراده فيها
ليحملها رؤيته التحليلية للكلام ومكوناته
الصغرى. وقد وجدنا أنّ مفهوم هذه
اللفظة قد اقترن بمسار

ملخص البحث:

ما زال سيبويه يمدنا بفكره الرصيد وتأمّله العميق بمسارات دقيقة نعمل بها على إعادة فهمنا له، وفهمنا للكيفية التي تحلّ بها أنماط الاستعمال اللغوي، وقد وجدنا أنّ محوراً من محاوره المهمة في التحليل النحوي كان استعماله للفظة المنزلة وهو يحاول أن يقدم تصوّره أو تصوّر أستاذه الخليل في هذا الموضوع أو ذلك من كلام العرب. ولقد كان تردد هذه اللفظة من الكثرة بمكان أن يلفت الانتباه، فعمدنا إلى تخصيص بحث مستقل للكشف عن المفهوم السيبويهيّ الذي أراده فيها ليحملها رؤيته التحليلية للكلام ومكوناته الصغرى. وقد وجدنا أنّ مفهوم هذه اللفظة قد اقترن بمسار حاجيّ قدّمه سيبويه بين يدي متلقيه في إثبات حجته وراجحة ما انتحاه.

فقد ورد ذكر المنزلة في كتاب سيبويه نحواً من (١٧٩٧) مرة وكثُرَ قوله: " إنّ هذا بمنزلة هذا " و " إنّ كذا بمنزلة كذا "، في إشارة منه إلى أنّ اللفظ أو التركيب يؤخذ بالمنزلة المذكورة نفسها حكماً وتعليلاً، أو بعبارة أخرى أنّ هذه اللفظة أو ما بها سيبويه إلى أنّ ما بعدها علّة لما يرصده من مظاهر لغويّة، وهو بذلك يجعلنا تحت تأثير عمليتين:

- الأولى: أنّه بهذه اللفظة تجنّب التكرار والإعادة حينما يحيل بها على مواضع متقدّمة من الكتاب يوحي بذلك كثرة ورودها في الجزء الأول من كتابه مقارنة بالجزء الرابع.
- والثانية: ترسيخ المعلومة الواردة بعد لفظ المنزلة في ذهن المتكلم عبر الموازنة بين المنزلتين. وعلى هذا فالمنزلة عند سيبويه تمثّل سمة أسلوبية في التعليل النحوي في الكتاب، وهي مفهوم للاكتشاف والتقرير والتقييم. وقد استقر تناول موضوع بحثنا على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: الأساس الأصولي (المعرفي) في استعمال المنزلة.

المبحث الثاني: المنزلة والتمثيل: قياس في الافتراض الدلالي للكلام ومكوناته.

المبحث الثالث: الأساس التداولي في استعمال المنزلة.

وتمّ تقسيم ما اخترناه من موارد استعمال المنزلة على هذه المباحث، طبقاً للمفهوم الذي يمكن إدراكه من استعمال هذه اللفظة بضميمة سياقها.

Abstract:

Still Sibawayh gives us his thought balance and contemplation deep paths minute we work to restore our understanding of him, and our understanding of how the decomposition of their patterns of use of language , we have found that the centerpiece of his interlocutor important grammatical analysis was used for word downloads as he tried to submit his conception or perception of teacher Hebron in this position or that of the language of the Arabs . It was the frequency of the term of the multitude important to draw attention , Fmdna to allocate independent research to reveal the concept Alsabuehi who wanted them to see it carried the word of analytical and micro components . We have found that the concept of the term has been accompanied by his orbital path Sibawayh in the hands of recipients to prove his argument and what Anthah preponderant .

It has been mentioned downloads in the book Sibawayh the order of (1797) once and many saying: "This is like this " and " that the well is like as well ," referring to that word or installation taken Mounzelh mentioned the same sentence explanation , or in other words, that this Sibawayh word motioned them to be beyond what the bug monitored aspects of language , which is why we do so under the influence of two operations :

- First : It's that word to avoid repetition and repetition when transmitting advanced placements of the book suggests that frequent appearance in the first part of the book compared to Part IV .

- Second : the consolidation of information received after the word downloads in the mind of the speaker via the balance between the middle range . On this Valmenzlh when Sibawayh represent stylistic feature in reasoning grammar in the book, which is the concept of discovery , evaluation and report . The theme of our research settled on three topics :

The first topic: the fundamentalist base (knowledge) in the use of downloads .

The second topic: downloads and representation : Measuring the semantic assumption of speech and its components .

The third topic: the foundation in the use of deliberative downloads .

What was the division of the resources we have chosen to use this revealed to detectives , according to which the concept can be realized from the use of the word in context enclosure .

المقدمة:

تنضوي تحت أسس البحث العلمي حقيقة مفادها، أنّ العلوم تقوم على البراهين ولا علم إلّا بالبرهان، ولا برهان إلّا بمقدمات ومبادئ ضرورية. ويمكن الكشف عن ذلك بوضوح في معالجة سيبويه بناء فكره النحوي في كتابه بوسائل وآليات عملت على توليد المعرفة وإنتاجها بإقامة الدليل بطريقة منهجية سليمة يمكن أن نصفها في مرحلتها تلك بالتشديدية؛ إذ يسلك بها سيبويه مسلكاً يقرر فيه أنها أصل من الأصول التي يستند إليها التفكير النحوي في الكتاب.

ونوه بعض المحدثين إلى الخصيصة الحجاجية للكتاب بـ ((أن سيبويه في كتابه كان يحتج للأساليب العربية، وأوجه الخلاف والمثابفة بينهما، وطرائق إعرابها، ومقتضيات هذه الطرائق، وتلك الأوجه من المعنى والاستعمال. وقد قال سيبويه في معرض التذليل على أن العرب يستخفون فيحذفون النون و التتوين، ولا يتغير من المعنى شيء وبعد أن أورد طرفاً من الأمثلة يستشهد بها على ذلك، قال: «وستره مفصلاً أيضاً مفرداً في بابه مع غير هذا من الحجج». فدل لفظه هذا أنه كان يقصد إلى الاحتجاج قصداً، وهو بعمله هذا قد فتح باب الاحتجاج لمن جاء بعده من النحاة و القراء))^(١).

إنّ رصدنا بنية نصوص الكتاب جعلتنا نستوحي صوراً خاصة منه لتقديم أنماط مختلفة من المعلومات عبر تحديد العلاقات الاستدلالية^(٢) بين التراكيب؛ وتتخذ تلك الصور، أو ما يمكن أن نسميه بـ (آلية الاستدلال) نسقاً منطقيّاً تداولياً يُبنى بها الخطاب الطبيعي من حيث إنّ الاستدلال ((إنجاز تسلسلات استنتاجية داخل الخطاب، أي متواليات من الأقوال والجمل بعضها بمثابة الحجج، وبعضها الآخر بمثابة النتائج التي تُستنتج منها))^(٣).

وفي هذا الإطار وجدنا أنّ سيبويه وظّف لفظة المنزلة لتتحمل جملة من المعاني تحت مفهوم جامع سعياً منه إلى تحصيل الاستدلال، وهو مفهوم يشترك فيه علم أصول الفقه، وعلم الكلام والنحو، والبلاغة بوصفه مفهوماً تفسيريّاً^(٤)، من حيث إنّ هذه العلوم متفاعلة فيما بينها مما يشي

(١) أبو علي الفارسي: ١٦٥. وينظر كتاب سيبويه: ١/١٦٦.

(٢) من أمثلة العلاقات الاستدلالية: علاقة الشرط، والاستلزام، والسببية، والتفسير، والقياس، والاستنتاج. ينظر الخطاب والحجاج: ١٧.

(٣) سلطة الكلام وقوة الكلمات: ١٤٢.

(٤) وظّف سيبويه هذا المفهوم في التفسير المرتكز على استدلال يتصل بعلم من علوم القرآن يُسمّى المكي والمدني، من ذلك ما نقله عن أبي الخطاب قائلاً: ((وزعم أبو الخطاب أنّ مثله قولك للرجل: سلاماً. تريد تسليماً منك، كما قلت: براءة منك... وزعم أنّ هذه الآية ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴾ {الفرقان ٦٣} بمنزلة ذلك، لأنّ الآية

بالقول إنّ نصوص سيبويه جاءت محققة لأغراضها، ومؤثرة في خالفها (متعلمين وناقدين) فلاشتغال بمثل هذه الآليات جعل نصوصه منظمة ومعلّلة؛ لأنها مبنية بناءً استدلالياً معتمداً الضوابط العقلية، وأحياناً النقلية لإقامة الحجة بهدف الإقناع^(٥).

إنّ نزوع سيبويه إلى تلك المركزية في كتابه، إنّما هو إحداث لتغييرات في الأفكار أو توجيهها على نحو صحيح. ويستتبط من ذلك أنّ الوصول إلى إثبات صدق قضية أو تفنيدها في برهنة جدلية هو ما يمتاز به الاستدلال الحجاجي، بحيث تفضي المقدمة إلى النتائج وتخدم النتائج المقدمة. وهذه الطريقة التي اتبعها سيبويه تتمّ عن أنّ يكون الإقناع هدفاً وسيلته (المنزلة). وأنّ امتلاك الإقناع لحدّ ((هو حمل النفوس على فعل شيء أو اعتقاده أو التخلّي عن فعله واعتقاده))^(٦)، يُعمّق وصف المنزلة أنّها فعل متعدد الصور يسعى لإحداث تأثير أو تغيير إمّا بفعل أو ترك، ويوجب أنّ يمتلك المقنع كفاءة تواصلية (وإقناعية)، وتتميّز هذه الكفاءة بمهارات هي:

١- مهارة التحليل والابتكار.

٢- مهارة العرض المنظم للأفكار.

٣- مهارة فهم دوافع تساؤلات المتلقي واعتراضاته.

إنّ الإيماء إلى هذه المهارات ليس من باب التصنيف، بقدر ما هي إطار لم يفت سيبويه اتخاذه هيكلًا يبني عليه حججه على وفق مرجعية ثقافية سائدة، ومشاركة بينه وبين متلقيه بعيداً عن المغالطات الوصفية.

فيما زعم مكّيّة، ولم يؤمر المسلمون يومئذ أنّ يُسلموا على المشركين، ولكنّه على قولك براءة منكم وتسلماً لا خير بيننا وبينكم ولا شرّ ((كتاب سيبويه: ٣٢٤/١-٣٢٥.

(٥) نوّه بعض الدارسين على عجلة إلى استعمال سيبويه لمفردة المنزلة، ودعا إلى أنّ ينقب عنها وتدرس وذكر فائدتها جهتين: الجهة الأولى، كونها وسيلة يحيلُ بها سيبويه على مواضع متقدمة من الكتاب تجنباً للتكرار فيبعد عن الفارئ الملل وعن الكاتب التعب. والأخرى جهة الفارئ أو المتعلم فتجعله يرسخ المعلومة المذكورة بالموازنة بين المنزلتين؛ ينظر: التعليل الصوتي عند العرب في ضوء الدرس الصوتي الحديث، قراءة في كتاب سيبويه: ٤٤-٤٥. إلا أنّ أمر المنزلة يبدو أشد فائدة ممّا تقدّم، ولاسيما مع لمح الطابع الحجاجي الذي انتحاه سيبويه عند إيراد هذه اللفظة وتأسيس نمط من التفكير اللغوي؛ وإلا كان بإمكانه أن يستعويض عنها بالألفاظ الأخرى التي توفي الجهتين المذكورتين، بالإحالة إلى المواضع أو استعمال ألفاظ التشبيه سواء بالأدوات الخاصة أو بالألفاظ الدالة.

(٦) منهاج البلغاء: ٢٠.

إننا ههنا لا نرتجل القول بنجاح سيبويه في الإقناع المرتد إلى الاستدلال، بقدر ما تكفلت به رؤيته في تحديد ذلك الإقناع المرتكز على وسيلة تصريفية لغايته وهي (المنزلة)^(٧)؛ ويُفهم من ذلك أنه اعتمد أساساً لبيانها يراها المتمعن في:

- (١) النصوص ذاتها: بما لها من عمق وبما تشتمل على مكونات لا يمكن أن تفهم من دون التعريف بها وتعيينها، ووصفها ببيان العلاقات الممكنة فيها.
- (٢) المعرفة النظرية: التي تعود إلى التصورات التي يمتلكها سيبويه عن الوقائع الخاصة بالدلالة وسبل إنتاجها والمواد الحاملة لها، فقراءته التحليلية إنما جاءت معززة بالمعرفة الإنسانية من أجل وصف المعنى.
- (٣) ثقافة المتلقي وقدرته على استحضار مرجعيات النصوص، سواء أكانت ثقافية أم اجتماعية أم تاريخية أم نفسية، وقدرته على الربط بين ما هو معطى بصورة مباشرة وبين معارفه الموسوعية والأشياء القادرة على استحضار أمور لا تتجلى مباشرة في ظاهر النصوص، بل تسلك مسلك الظل يدركها المتلقي إدراكه لمن هي ظل له، فها هو يصبّ معطيات أسسه الإقناعية في تصميم نصّه في باب "حتى" إذ يقول: ((فحتى ههنا بمنزلة إذا، وإنما هي ههنا كحرف من حروف الابتداء... ويدلّك على "حتى" أنها حرف من حروف الابتداء أنك تقول: " حتى أنه ليفعل ذاك"، كما تقول: " فإذا أنه يفعل ذاك... ومثل ذلك: " مرض حتى يمرُّ به الطائر فيرحمه"))^(٨). فقد أسفر النص السيبيوي عن

(٧) مثّلت المنزلة عند سيبويه قانون الاستقراء اللغوي مما مهّد لظهور القياس المنطقي بعد ذلك، يتضح هذا الأمر عبر إحصاء موارد ذكرها إذ ورد ذكرها في (١٧٩٧) مرة في الكتاب:

- في الجزء الأول ذُكرت (٥٩٤) مرة.
- في الجزء الثاني ذُكرت (٦٩٩) مرة.
- في الجزء الثالث ذُكرت (٤٨٦) مرة.
- في الجزء الرابع ذُكرت (١٨) مرة.

وهذا العدد قليل في الجزء الرابع بإزاء بقية الأجزاء يقودنا إلى القول باستنفاد أطر استعمال هذه اللفظة ووضوح مواضعها في الأجزاء الأولى، ولاسيما في غنائها بالتراكيب التي تتعدد جوانب تحليلها فيحتاج معها إلى تمثيل، أو عرض مشابهة، أو مساواة، أو نفي تلك المساواة فتطلب معه الكثرة في استعمالها لحاجة التحليل، أو التعليل، أو الإيضاح. ويمكن أن نضيف إلى ذلك أن المواضع الأخير يكتبها فيها بالإحالة إلى ما سبق تناوله طلباً للاختصار وننوه إلى أنّ استعمال هذه المفردة قد اختلف بعد سيبويه عند النحاة الخالفين إلّا في إشارات قليلة ورد ذكرها، منها إشارة ابن جني في الخصائص في حديثه عن عدم جواز تقديم المستثنى على الفعل الناصب في ٢/٣٨٤-٣٨٥ و ١/٢٤٩. وإشارة ابن هشام في حديثه عن السين المهملة، وكلتا الإشارتين في معنى (موضع النزول) أي: المكان. وإن زاد ابن هشام معنى آخر، وهو (المشابهة) في حديثه عن (سي) في (لاسيما)، فهو مشابه لـ(مثل) وزناً ومعنى. ينظر المغني ١/٢٧٥ و ١/٢٧٦.

(٨) كتاب سيبويه: ٣/١٨-١٩.

استيعاب وإدراك لغويين لما وُظِّفت له (المنزلة)؛ وعكست ثنائية اللغة والكلام، فقد حدّد القيمة اللغوية لـ " حتى " بتعيين سماتها التمييزية بأنّها للابتداء منطلقاً من هذا المنظور الوصفي إلى مرتكزات خارجية يحددها النظام العرفي والتداولي للغة في المواقف الواقعية في إفادة معنى المبالغة، فهو يتلقى الرحمة مما يمرّ به من طائر، واستناداً إلى مبدأ ثنائية اللغة والكلام نرى أنّ المنهجية (المنزلة) آلية حاجية تنبأها سيبويه في تناول الأفكار اللغوية في صياغة تداولية للإقناع اتخذت بعدين:

- الأول: بعدُ يعكسه المبنى.

- والآخر: بعدُ حوارِيّ (بأليته التشخيص والمقام)؛ إذا ما أخذ بالحسبان أنّ الحوار تفاعل الذوات مع محيطها الخطابي فهو خاصية تداولية للخطابات الحجاجية. ويبدو أنّ الجامع بين البعدين هو تشبيه قول بقول آخر بينهما وجه شبه ليبيّن أحدهما الآخر، ويصوّره في برهانية تترك أثرها في المتلقي بتغيير المنظور الأول، واستحداث منظور جديد؛ إلّا أنّ المشابهة في المنزلة ههنا تعلق قيمتها على مفهومها المستهلك بين أشياء ما كان لها أن تكون مترابطة أبداً، ومن ثمّ عدّت عاملاً أساسياً في عملية الإبداع السيبويهيّ بما أفضى عليها لتكون حجاجاً موازناً، إمّا عن طريق طرح معادلة صورية خالصة، وإمّا عن طريق الانطلاق من التجربة بهدف إفهام الفكرة سعياً لأن تكون الفكرة مقبولة بنقلها من مجال إلى مجال مغاير.

فالمنزلة جمعت بين التأثير النظري، والتأثير السلوكي العملي، وهي رؤية جديدة بالفعل فكان الاستدلال الحجاجيّ بها انجازاً لعملين: عمل التصريح بالحجة من جهة، وعمل الاستنتاج من جهة أخرى انطلاقاً من محاولة إثبات وجود شيء مُعيّن عبر النموذج الثنائي المتقابل (بمنزلة- ليس بمنزلة). ذلك أنّ معنى الإثبات يقتضي مثبتاً ومثبتاً له وكذا حال النفي إذ يقتضي منفيّاً ومنفيّاً عنه، ومن ثمة يكون هناك إثبات عدم وجود ذلك الشيء المنفي، ففي كلتا الحالتين يقع الإثبات، وهو ما دعاه إلى أنّ يظلّ مخلصاً لطريقته الخاصة في البحث عن إجابات لا تلبث أن تثمر هي الأخرى تساؤلات جديدة بطرق منهجية ما أكسب بحثه اللغوي توجّهات فكرية واعية؛ تحاول قراءتنا للمنزلة أن تكشف عن العقل الكامن وراء النظام.

يظهر أنّ سيبويه قد أقام المنزلة في ظل أنّ تكون في صلب الجهاز التواصلية لإدراك الكلام وإقامة الحجج، وهو ما سيتمّ الكشف عنه في قابل البحث.

المبحث الأول

الأساس الأصولي (المعرفي) في استعمال المنزلة

ونعني به البعد الذي يبحث في اللوازم الذهنية العامة التي تتطلبها عملية إنتاج الكلام ((فمن دون تلك العمليات العقلية تفقد المكونات اللغوية قدرتها الأدائية في الاستعمال))^(٩).

إنّ عانديّة النظام اللغويّ الاجتماعيّة لجماعة بشريّة مُعيّنة، تؤسّس عند سيبيويه على افتراض أنّ اللغة نظاماً محكماً من الضروري اكتشافه؛ وأنّ هذا النظام ليس ابتكاراً لشخص بعينه، بل هو نظام للجماعة اللغوية، فيتلاءم معيار المنزلة ههنا والمبدأ التفسيري، ذلك المبدأ الذي جعلنا نصنّفه حين ترتبط دلالة المنزلة به إلى:

١- التفسير بالمنزلة للإيضاح: وهو مبني على أساس دلالي يُزيل المعنى الثاني الإبهام في المعنى الأول إلّا أنّه ليس من قبيل التكرار بقدر ما هو إيضاح وإثارة للقدرة المعرفيّة عند المتلقي جاء في (هذا باب الفاعل الذي يتعدّاه فعله إلى مفعولين) قوله: ((وإنّ قلت: رأيتُ، فأردتُ رؤية العين، أو وجدتُ، فأردتُ وجدان الضالة، فهو بمنزلة ضربتُ، ولكنك إنّما تريد بوجدتُ علمتُ، وبرأيتُ ذلك أيضاً ألا ترى أنّه يجوز للأعمى أن يقول: رأيتُ زيداّ الصالح. وقد يكون علمتُ بمنزلة عرفتُ، لا تريد إلّا علم الأول، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلَّمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ﴾ {البقرة ٦٥}؛ وقال سبحانه: ﴿وَأَخْرَيْنَ مِنْ دُونِهِمْ لَأْ تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ {الأنفال ٦٠} فهي ههنا بمنزلة عرفتُ، كما كانت رأيتُ على وجهين))^(١٠).

إنّ المقاربة بين العلم والمعرفة عند سيبيويه ربما فرضها النمط النحوي المقتضي حدود قوة التعدي المتفاوتة في الفعلين إلّا أنّ خلفيّة علم الكلام لا تتوارى ههنا كما رأى بعض الدراسين^(١١). مما يشي بالقول إنّ نزوع سيبيويه نحو تفسير كلام العرب وتركيباته وآلية فهمه لم تكن عند تخوم النظر النحوي فحسب.

(٩) كليات المعرفة اللغوية عند الفلاسفة المسلمين في ضوء اللسانيات: ٢٦.

(١٠) كتاب سيبيويه: ٤٠/١، وأورد سيبيويه زعم الخليل في بيت الأسود بن يعفر:

أحقاً بني أبناء سلمى بن جندلٍ تهتدكم إياي وسط المجالس.

أنّ التهتد هنا بمنزلة الرحيل بعد غد، ينظر كتاب سيبيويه: ١٣٦/٣.

(١١) ذهب د. إدريس مقبول إلى أنّ مذهب سيبيويه في ترادف العلم والمعرفة هو نفسه مذهب المعتزلة مستنداً على ذلك بالنص أعلاه. ينظر: الأسس الابستمولوجية والتداولية للنظر النحوي عند سيبيويه: ١٩٩ و٢٠١. ولعل الأمر أقرب من هذا الإدعاء فلولا الأساس التداولي لهاتين اللفظتين لما أمكن لسيبيويه أن يقارب أحد الفعلين بالآخر.

٢- التفسير بالمنزلة للتعليل: وهو أن يُسوَّغ ما بعد المنزلة للمشكل قبلها، من حيث إنَّ الأصل في الأحكام التعليل؛ ونركن إلى نصّ سيبويه إذ يقول: ((وقد جاء من الفعل ما قد أنفذ إلى مفعول، ولم يقوَ قوة غيره ممّا قد تعدّى إلى مفعول، وذلك قولك: امتلأتُ ماءً وتفقأتُ شحمًا، ولا تقول: امتلأتهُ، ولا تفقأتهُ ولا يعمل في غيره من المعارف، ولا يقَدِّم المفعول فيه، فتقول: ماءً امتلأتُ، كما لا يُقدِّم المفعول فيه في الصفة المشبهة، ولا في هذه الأسماء؛ لأنها ليست كالفاعل، وذلك لأنه فعل لا يتعدّى إلى مفعول، وإنما هو بمنزلة الانفعال لا يتعدّى إلى مفعول نحو: كسرتُهُ فانكسر ودفعته فاندفع))^(١٢).

إنَّ للعامل قيمة كبرى جعلته يقارب بين الصفة المشبهة ومجموعة محدّدة من الأفعال بناءً على مشابهة شكلية في عملهما فالأفعال المذكورة في النصّ السيبويهي هي أفعال لا تتعدّى إلى مفعول به، وهو يقرنها (بمنزلة الانفعال). ويستقطب سيبويه مصطلح (المفعول فيه) ليدلّ على أنّ نصبها للمفعول إنّما هو نفاذ غير مباشر فهو مفعول كمفعول الملحقات بالفعل؛ لأنها ليست كالفعل في القوة. ولعمري أنّ أبا بشر أحدث توازنًا بصورة تلقائية بين علاقة العنصر والموقع والوظيفة فجاءت علاقة منتجة في إطار حاجيٍّ محتوٍ على مقدمات ظنيّة قابلة للمناقشة وصولاً إلى إثبات صدق القضية. إذ التعليل النحوي أمر احتمالي يقوم على الفرض ووظيفته تسويغ النمط الاستعماليّ للكلام يُؤازر ذلك قول الخليل:

((إنَّ العرب نطقت على سجيّتها وطباعها، وعرفت مواقع كلامها، وقام في عقولها عله، وإن لم يُنقل ذلك عنها، واعتلت أنا بما عندي أنّه علة لما اعتلته منه، فإن أكن أصبتُ العلة فهو الذي التمسْت؛ وإن لم تكن هناك علة له، فمثلي في ذلك مثل رجل حكيم دخل داراً محكمة البناء عجيبه النظم والأقسام، وقد صحّت عنده حكمة بانيتها بالخبر الصادق، أو بالبراهين الواضحة، والحجج اللائحة. فكلمًا وقف هذا الرجل في الدار على شيء منها قال: إنّما هذا هكذا لعله كذا وكذا، ولسبب كذا وكذا، سنحت له وخطرت بباله محتملة لذلك. فجاز أن يكون الحكيم الباني للدار فعل ذلك للعلة التي ذكرها هذا الذي دخل الدار، وجائز أن يكون فعله لغير تلك العلة، إلّا أنّ ذلك مما ذكره هذا الرجل محتمل أن يكون علة لذلك. فإن سنح لغيري علة لما اعتلته في النحو هو أليق مما ذكرته بالمعلول فليأت بها))^(١٣). فبالعلل تتجلى صور الفرضيات، ويكشف عن الظواهر، ويمثّل هذا الطرح يتبيّن مقدار حاجة النحو إلى هذا المنحى من التفكير.

(١٢) كتاب سيبويه: ٢٠٤-٢٠٥ وينظر ٩٠-٩١.

(١٣) الإيضاح في علل النحو: ٦٦.

٣- التفسير بالمنزلة للتضمين: وهو التفسير الذي يقترب مما يسمى في اللغويات الحديثة بمبدأ (الانضواء)^(١٤)، الدال على احتواء عنصر بنيوي على دلالة ضمنية، نستقرأه من نص سيبويه: ((تقول: لا تأتيني فتحدثني لم تُرد أن تُدخل الآخر فيما دخل فيه الأول فتقول: لا تأتيني ولا تُحدثني، ولكنك لما حوّلت المعنى عن ذلك تحوّل إلى الاسم كأنك قلت: ليس يكون منك إتيان فحديث، فلما أردت ذلك استحال أن تضمّ الفعل إلى الاسم، فأضمروا " أن " ؛ لأنّ أن مع الفعل بمنزلة الاسم، فلما نووا أن يكون الأول بمنزلة قولهم: لم يكن إتيان. استحالوا أن يضمّوا الفعل إليه، فلما أضمروا أن حسن؛ لأنه مع الفعل بمنزلة الاسم))^(١٥).

فالفعل وهنا بمنزلة الاسم بقيام علاقة الاشتمال الضمني- لاحتوائه الحدث (الإتيان) - فقد رصد سيبويه سلوكاً متميّزاً لـ (أن) الناصبة ومعمولها الفعل في أنّهما تسلك مسلك التركيبات العباريّة مما يجعلها تقع موقع الأسماء في الجملة، بمعنى أنّ الحرف (أن) وصلته (الفعل) يشغل في الجملة موقع الاسم، يدلّ على ذلك ما جاء في أحد الأبواب قوله: ((هذا باب من أبواب أن التي تكون والفعل بمنزلة المصدر، تقول: أن تأتيني خيراً لك؛ كأنك قلت: الإتيان خيراً لك))^(١٦). وليس معنى ذلك أنّها وصلتها بمعنى الاسم (زيد) و (عمرو) ونحوهما، بل أراد بها سيبويه الاسمية مفهوماً.

٤- التفسير بالمنزلة لتأصيل الأصناف: وهو أنّ ما بعد المنزلة يوضّح السبب، ومما يؤكّد قيمة هذا الضرب من التفسير بالمنزلة أنّ سيبويه يؤصّل تصنيف الفعل عبره بالنظر إلى الحدث بوصفه صنفاً معرفياً قائماً بذاته كمّن في الفعل، يقول: ((ألا ترى أنّ قولك: قد ذهب بمنزلة قولك: قد كان منه ذهاب. وإذا قلت: ضرب عبد الله، لم يستين أنّ المفعول زيدٌ أو عمرو، ولا يدلّ على صنف، كما أنّ ذهب قد دلّ على صنف، وهو الذهاب، وذلك قولك: ذهب عبد الله الذهاب الشديد، وقعد قعدة سوء، وقعد قعدتين؛ لما عمل في المرّة منه والمرتين، وما يكون ضرباً منه))^(١٧).

(١٤) يُقصد بالانضواء تضمّن عنصر بنيوي دلالة ضمنية ثانية. ينظر: مدخل إلى علم اللغة (تود): ٩٦، واللسانيات والبيداغوجيا: ١٤١ و ١٧٢ وعلم المعاني (عتيق): ١٤٠.

(١٥) كتاب سيبويه: ٢٨/٣.

(١٦) كتاب سيبويه: ١٥٣/٣.

(١٧) كتاب سيبويه: ٣٤/١-٣٥.

فالحديث عند سيبويه عامل رئيس في البنية التركيبية يحيل على ذلك قوله: (عمل في المرة والمرتين) فهو يدعم هذه الفكرة بالمستويات التمثيلية، بقوله: ((وما يكون ضرباً منه، فمن ذلك: قعد القرفصاء، واشتمل الصماء، ورجع القهقري؛ لأنه ضرباً من فعله الذي أخذ منه))^(١٨). ويبيّن سيبويه سبب رؤيته هذه، فالمسألة هنا تخضع لتصنيفات، وهي تصنيفات تكون في بعدها الأول محاكية لحركة الفعل وقد تمتدّ لما هو أبعد من ذلك تكون ذات بُعدٍ إحاليٍّ مباشرٍ، ومرتبطة بقيم التركيب، والترابط الحاصل بين أجزاء هذا التركيب؛ فالفعل عند سيبويه أخذ ((من لفظ أحداث الأسماء))^(١٩). فالذهاب في (ذهب) حالة تمثيلية خاصة بالفعل بأسبقية متصورة.

ويتوغّل سيبويه في أبعاد هذا التفسير ضمن نص آخر قائلاً: ((ألا ترى أنك إذا قلت: ضاربٌ رجلاً، أو مأخوذاً بك، وأنت تبتدئ الكلام احتجت ههنا إلى الخبر، كما احتجت إليه في قولك: زيدٌ وضاربٌ، ومنك بمنزلة شيء من الاسم في أنه لم يُسند إلى مسند، وصار كمال الاسم، كما أن المضاف إليه منتهى الاسم وكماله))^(٢٠).

فسيبويه ههنا يظهر قضية مهمة جداً، وهي أقلّ ما يتألف منه الكلام بحثاً عن نواته التي هي عبارة عن وحدات غير قابلة للتحليل تكوّن البنية الأساس للنظر في وحدات التركيب للكلام العربي، ويلحظ من توظيف المنزلة ههنا إيماءة منه إلى أنّ فهمه للنواة بوصفها ((مستوى تجريديّ في فهم الجملة، يكون من الناحية اللغوية قبلياً عن إنشاء الكلام، وتتخذ فيه الجملة نمطاً مثالياً لها. وقد يظهر هذا النمط عند الاستعمال، وقد لا يظهر. ويتمّ عن هذا النمط أو هذه البنية تحقّق نمطين أساسيين سيصبحان البنية الأعمق وستكون هذه الأنماط ممثلة للبنية العميقة للجمل المتحققة لهذه الأنماط))^(٢١).

ومقياس الانتقاء يجعلنا أمام نص آخر يقول سيبويه فيه: ((ومما يُختار فيه النصب لنصب الأول، ويكون الحرف الذي بين الأول والآخر بمنزلة الواو والفاء وثمّ، قولك: لقيتُ القوم كلهم حتى عبد الله لقيته، وضربتُ القوم حتى زيداً ضربتُ أباه، وأتيتُ القوم أجمعين حتى زيداً مررتُ به، ومررتُ بالقوم حتى زيداً مررتُ به. فـ(حتى) تجري مجرى الواو وثمّ وليست بمنزلة أمّا؛ لأنها

(١٨) كتاب سيبويه: ٣٥/١.

(١٩) كتاب سيبويه: ١٢/١.

(٢٠) كتاب سيبويه: ٣٢٨-٣٢٩.

(٢١) مفهوم الجملة عند سيبويه: ٢٢٢.

إنّما تكون على الكلام الذي قبلها ولا تبتدئ))^(٢٢). فهي لفظة ذكية من سيبويه حين يولي بعض الحالات عناية بأن يكون الجوار فيها أقوى من البناء.

ومن مواضعها ما أورده مع " حتّى " موضّحاً مشابقتها لحروف العطف (الواو والفاء) فجمع في نصّه تنوعات نمطية لها بأنّ (عبدالله) في المثال الأول قد حُمِل على اللفظ المجاور (القوم) فالعامل عمل في مضمّر يربط الاسم بالمفعول المتقدّم إجمالاً، ويتفق (زيد) في المثال الثاني مع (عبد الله) في الحمل على الجوار إلّا أنّ العامل عمل في مضمّر على نحو غير مباشر بوقوعه على شيء من سببه، وحُمِل المفعول على المفعول المجاور في المثال الثالث؛ إلّا أنّ الفعل يعمل في مضمّر على نحو غير مباشر، أي: وصل إليه عبر الحرف. أمّا المثال الأخير فقد حُمِل المفعول على موقع المجاور وليس من لفظه. ولأبي بشر شأنٌ في الإبداع ههنا فهو يُحفّز متلقيه بتكرار متتاليات لغوية تقتضي عدداً من الملامح البارزة أتت في مقدمتها أنّ عمليات تكوينها تتّجه بصفة خاصة إلى الجانب الدلالي.

فالنصوص المنظمة عن طريق النحو والدلالة تفرض نفسها على الذاكرة، فتكون قابلة للاستمرار ويكفل التكرار أو التناظر - حينما يكون الطابع النبوي نفسه^(٢٣) - سبيل الحفظ والاسترجاع ، وهو ما يُمكننا من القول: إنّ سيبويه اعتمد إستراتيجية تعليمية تقوم على التناظر والتكرار. وجدير بالتنويه أيضاً أنّ الأنماط التي ذكرها سيبويه تتساند إلى مبدأي التسوية والتعديل، من حيث إنّ المادة اللغوية واحدة وما بعد حتّى يشتمل على الانسجام مع ما قبلها بآثارها السماعية عن طريق أخذها العلامة الإعرابية نفسها. فإنّبناء الهاجس اللغوي إنّما يرتدّ إلى مرجعيات نفسية تكيفها لاختيار ترميز مشابه لما قبل الأداة (حتى). فالتنويغات البنائية يكسوها سيبويه بعداً صوتياً لسانياً وليد الانفعال. ويبدو أنّ هذا الجانب مسكوت عنه في الكتاب، وهو جانب يُشخص قيم التفاعل النفسي المنطوية عليه فاعلية هذه العناصر البنائية نطقاً بأن تكون معيارية إيقاعية تحفظ في عباراتها بكثير من الامتيازات الإيقاعية. وكأنّ سيبويه يوحى إلى نشاط لساني يقوم على تداعي العناصر على وفق قانون طبيعي وهو قانون الخفة، بتتابع الحركات، يجدُّ له مصداقية بالغة في نصوصه تمنحه أهلية الاختيار الإيقاعي المبرّر نفسياً ولسانياً وسماعياً، فيكون ذلك سبيله المنزلة في فهم آليات قانون الاستخفاف الذي يتمّ بالمجاورة.

(٢٢) كتاب سيبويه: ٩٦/١.

(٢٣) نعني بالطابع النبوي ههنا نسق(حتى) مع الاسم المنسوب بعدها في المتتاليات المذكورة في النص السيبويهي.

٥- التفسير بالمنزلة للإجمال: وفيه يوسع سيبويه دائرة معالجته التحليلية للمكونات اللغوية، فعلى الرغم من تطبيق المسلك التفكيكي في تحليلاته إلا أنه يُجمل بالحكم بما هو بعد المنزلة، فقد عرّج على (أم) المنقطعة مقدماً مسحاً شاملاً في أنها تأتي بعد الخبر، وبعد الاستفهام، وفي مظهر مُجمل هو (الانقطاع) فيقول: ((ويدلّك على أنّ هذا الآخر منقطع عن الأول قول الرجل: إنها لإبلٌ ثم يقول: أم شاء يا قوم. فكما جاءت أم ههنا بعد الخبر منقطعة، كذلك تجيء بعد الاستفهام... وبمنزلة أم ههنا قوله عزّ وجلّ: ﴿الم * تنزيلُ الكتابِ لَأَ رَيَبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ (السجدة ١ و٢)... ومثل ذلك: ﴿أَلَيْسَ لِي مَلِكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ...﴾ (الزخرف ٥١ و٥٢) كأنّ فرعون قال: أفلا تبصرون أم أنتم بصراء؛ لأنهم لو قالوا: أنت خيرٌ منه، كان بمنزلة قولهم: نحن بصراء عنده، وكذلك: أم أنا خيرٌ بمنزلته لو قال: أم أنتم بصراء))^(٢٤). ويؤكد هذا الإجمال بالاستشهاد لها بمواضع قرآنية، زيادةً في الكشف وتتميماً للبيان؛ لأنّ آياته برهان صدق ينطلق منها إلى تفسير تحليلي يُثبت فيه أنّها تبقى منقطعة على الرغم من وقوع التغيرات لمجيئها، خبراً واستفهاماً. ولا يقتصر الإجمال على الأداة، بل أنّ بنيته التفسيرية تتسع لتشمل أنماط الكلام. وتبرز هذه المسألة في بعض الأنماط الخبرية التي قد تنزل منزلة أنماط الأمر، والنهي بالارتكان إلى بنيتها العميقة المعدولة عن دلالتها الإخبارية إلى دلالة طلبية؛ وقد عالج سيبويه هذه الازدواجية في ((باب الحروف التي تنزل منزلة الأمر والنهي؛ لأنّ فيها معنى الأمر والنهي)). ممثلاً لذلك بـ ((حسبك ينم الناس. ومثل ذلك: اتقى الله امرؤ، وفعل خيراً يُثب عليه؛ لأنّ فيه معنى ليق الله امرؤ، وليفعل خيراً، وكذلك ما أشبه هذا))^(٢٥). فقد جعل سيبويه المعنى عاملاً جوهرياً في تفسير الكلام، ويشرع في وضع ضوابط تفسّر نظام الإعراب من حيث إنّ القول بالعمل ههنا - أعني عمل العناصر اللغوية بعضها ببعض - ليس على وجه الحقيقة، بل على وجه العلاقات المطردة الثابتة بينها في تلازمها ((والقول بالعمل افتراض في التحليل الداخلي أعانهم على تفسير كثير من الظواهر في الإعراب وما يتعلق به))^(٢٦). فالعنصر الإخباري " حسبك " في قول العرب: حسبك الحديث ينم الناس. تتحدّد دلالاته بـ " اكف " ، واختيار هذه الدلالة؛ إنّما جاء لورود

(٢٤) كتاب سيبويه: ١٧٣/٣.

(٢٥) كتاب سيبويه: ١٠٠/٣.

(٢٦) نظرية النحو العربي ٢٤.

العنصر الفعلي الثاني " ينم" مجزوماً؛ لعدم استغناء تحقيقه عن تحقق مضمون العنصر الأول المدلول عليه بالنمط الإخباري^(٢٧).

ونخال أنّ علاقة التداعي بين أنواع التفسير والمنزلة يؤكّد ضرورة ملاءمة المفسّر للأمر المفسّر، ولا يخرج عما هو بحاجة إلى تفسير بما يضيف جديداً يوضّح الأول. ولولا ذلك لما كان هناك مسوّغ لتوظيفه. ونشير إلى أنّ دقة استعمال سيبويه لمفهوم المنزلة هنا أوجب خلق بنية علمية هرمية لها قاعدتها الاستقرائية، وتقنياتها التحليلية، ووسائلها التفسيرية؛ لأنّ التفسير نظرية تقسّر الاستقراء والتحليل أي الوصف والقانون، فيكون بذلك أسمى أهداف المشروع العلمي.

المبحث الثاني

المنزلة والتمثيل: قياس في الافتراض الدلالي للكلام ومكوناته

يظهر التمثيل جانبا مهما من العقل البشري لقدرته على إحداث صياغات افتراضية تمكنه من إعطاء صوراً مقننة مكتوبة لأنظمة الكلام ومساراته يمكن أن تتسم بطابع العموم، ما يؤهل هذا المنحى ليكون بديلاً للواقع المسموع. وعلى هذا يسعى الخطاب العلمي أن يبني محتواه المعرفي بناءً محكماً؛ بوصف التمثيل تقنية تفسيرية منظمة تجمع بين مفاهيم دالة في مجالها، وبراهين يتم تقديمها في إطار الظواهر المدروسة. ولما كان الحجاج النظري عند سيبويه يسير باتجاهين:

- الأول: في إثبات شيء على وجه الصحة النحوية.

- الثاني: في إبطال شيء على وجه الخطأ النحوي.

فكان التمثيل واحداً من سبل الحجاج عنده، وله مرتكزات ذهنية أولية، ويأتي بها أيضاً للقاعدة وإيصالها إلى المتلقي فهو ليس برهاناً أو دليلاً قاطعاً بقدر ما يكون حجة تسعى للإقناع.

وقد خضعت المنزلة مع التمثيل لمنهجية علمية بوصفها إفرازاً دالاً للغة حينما صيرها سيبويه موضوع بحث عقلي يُنمى على أساس تجريدي فكانت وسيلة ناجحة في متابعة البحث عن المبادئ التفسيرية التي تنفذ إلى عمق الظاهرة النحوية. وقد تحكّم سيبويه في تنظيم الهيكل التنفيذي للمنزلة مع التمثيل بذكر وضعين لهما:

(٢٧) ينظر: شرح الأشموني ٣/٥٦٩-٥٧٠، وعناصر النظرية النحوية ١٧٣، والبحث الدلالي في كتاب سيبويه

- الأول : علمي من جهة تقرير الحقائق.

- والآخر: فني من جهة التصوير والافتراض.

فإذا كان التمثيل عنده احتجاجاً عقلياً - وفي هدي الإدراك لحدّ (المثال) أنه: ((اللفظ الدال على المعنى المجرد في الذهن عن كل ما من شأنه أن يقترن به فهو النموذج أو الجزئي الذي يُذكر لإيضاح القاعدة))^(٢٨). فحينئذ تتجلى لنا حقيقة أن اعتماد المقايسة الجدلية تجعل مناقشة القضايا اللغوية مناقشة علمية. ومن نصوص الكتاب المبكرة التي تُفصح عن ذلك قول سيبويه في باب التعجب: ((هذا باب ما يعمل عمل الفعل، ولم يجرِ مجرى الفعل ولم يتمكّن تمكّنه، وذلك قولك: ما أحسن عبد الله. زعم الخليل أنه بمنزلة قولك: شيء أحسن عبد الله، ودخله معنى التعجب، وهذا تمثيل ولم يُتكلّم به))^(٢٩).

إنّ محاولة سيبويه تفسير جملة التعجب بصيغة افتراضية - أفادها من الخليل وهي: (شيء أحسن زيدا)؛ إنّما هي محاولة لتحديد العلاقات بين المعاني والتركيب المجرد وصياغتها صياغة رمزية مجردة في تكامل خلاق بين العقل والتقنية (النظرية والواقع). ما أنتج نحواً تمثلياً في صورة مخالفة للوصف الصوري الخالف من جهة إنّ الأخير يمتنع عن وصف المحتوى الدلالي للمقولة النحوية، إلّا أنّ الدرس النحوي عند أبي بشر يقوم على وصف العلاقات الكامنة بين مكونات الجملة ؛ وإنّ الأخيرة وما يكسوها من معانٍ هي حصيلة التفاعل بين مؤلفاتها؛ في ظل نسبة معينة من التجريد لصياغة (بنية تمثيلية). فجاءت نظريته متفرّدة في وصف القواعد اللغوية ببعدها عن الغموض من جهة، وإظهار الملامح الدلالية في الدراسة من جهة أخرى وهو ما يُحيل عليه قوله: (ودخله معنى التعجب). فالتمثيل بمفهوم المنزلة عند سيبويه يجعلنا أمام نوعين من النماذج اللسانية : الثانية منها نماذج مُتمّلة - عبر معالجة علاقتها مع اللفظ والمعنى - للنماذج الأولى التي تهتمّ بالتأليف بين أجزائها الأساسية. ويقود التأمل فيه إلى مسألة مهمة هي أنه إذا كان الكلام عند سيبويه نشاطاً معرفياً؛ فإنّ مقابلته بين مفهوم المنزلة، ومفهوم تمثيل ولم يُتكلّم به. إنّما جاء لمراعاة القدرة على امتلاك اللغة واستعمالها في تحليل افتراض الممكن في البنية الأصل لتأويل

(٢٨) المنزح البديع: ١٦٨، وينظر الشاهد الشعري في النقد والبلاغة (قضايا وظواهر ونماذج): ٣٢.

(٢٩) كتاب سيبويه: ٧٢/١.

البنية المنجزة. وليس هناك أدقّ من تعبير " تمثيل ولم يتكلم به ". للدلالة على الطابع الافتراضي^(٣٠) لرؤية سيبويه المنهجية للبنية العميقة.

وعبر هذه الرؤية سعى سيبويه إلى أن يُقدّم اجتهاداته للتفريق في المستوى اللساني بين التجريد والاستعمال الخطابي في محاولة منه للسيطرة على الظاهرة اللغوية المخترقة للقاعدة النحوية بإيجاد الحلول المناسبة بوصف تلك الحلول نتائج تتمثل بالتأويل والتقدير^(٣١). ونجد ذلك بالارتكان إلى موضع آخر في كتابه يكشف لنا عن منهجيته العميقة في إطار القبلية اللغوية إذ يقول: ((... ونظير جعلهم لم آتِك ولا آتِيك وما أشبهه بمنزلة الاسم في النية حتى كأنهم قالوا: لم يك إتيان، إنشاد بعض العرب قول الفرزدق^(٣٢):

مشائيمُ ليسوا مُصلحينَ عشيرةً ولا ناعبٍ إلّا بيّن غرابها

.... لما كان الأول تستعمل فيه الباء ولا تغير المعنى، وكانت ممّا يلزم الأول نوّوها في الحرف الآخر، [بجر ولا ناعب] حتى كأنهم قد تكلموا بها في الأول، وكذلك صار " لم آتِك " بمنزلة لفظهم بـ " لم يكن إتيان "؛ لأنّ المعنى واحد. واعلم أنّ ما ينتصب في باب الفاء، قد ينتصب على غير معنى واحد... فالنصب ههنا في التمثيل، كأنك قلت: " لم يكن إتيان فأُنْ تُحدّث "، والمعنى على غير ذلك، كما أنّ معنى عِلِمَ اللهُ لأفعلن، معنى: رَزَقَ اللهُ^(٣٣). فأيراد المنزلة عند سيبويه لا يشترط فيها تطابق المعنى بين الطرفين المتناظرين ما يعني أنّها تقترب بالمستوى الافتراضي القائم على تصورات هيكلية (تركيبية) للنمط المدروس.

فقد عقد سيبويه مواعمة بين الصيغتين (لم يفعل ويفعل)، أي: (لم آتِك ولا آتِيك) ، (و) أتى وأحدّث)، وهما مختلفان في الدلالة الزمنية، إلّا أنّ ضابطاً أساساً حلّ محلّ هذا التباعد باشتغال الفعلين (لم آتِك وأتى) في بنيتهما المجردة على الحدث وهو (الإتيان) فكان تقدير (أن) الناصبة إظهاراً للحديث ليتشاكل مع ظهور الحدث السابق (الإتيان) بوصفه موضوعاً اسماً ويتضح ذلك

(٣٠) ذكر الأستاذ الحلواني أنّ ((الافتراض أسلوب فقهي معروف كان عليه أبو حنيفة وشيوخه خاصة من رجال الدين وقد أفاد منه النحاة في زمن مبكر)) ينظر: المفصل في تاريخ النحو العربي: ١/١٦٩. ولعلّ في هذه المسألة ما يتكأ عليه سيبويه في إرسال معرفته العميقة بالفقه حينما يوظفه بجدارة في مقارنة بين التخييل والتصديق.

(٣١) التقدير: ((هو نية الشيء وتصوّر وجوده، وكثيراً ما يُستعمل في المواطن التي يقع فيها الحذف، أو التي تحتاج فيها الكلمات إلى ما يكمل معانيها)) ينظر: معجم المصطلحات النحوية والصرفية: ١٨٢.

(٣٢) ديوان الفرزدق: ٢٣.

(٣٣) كتاب سيبويه: ٣/٢٩-٣٠.

في النص السابق عند قوله: ((كأنك قلت: لم يكن إثيان فأنت تُحدِّثَ والمعنى غير ذلك)). أي أنَّ المعنى المراد في التمثيل، هو (فحديث). فالقول بإضمار (أن) قبل الفعل؛ إنّما هو مسألة تركيبية في البنية العميقة إلا أنّها مسألة دلالية في المنطوق الظاهر، فسيبويه يقيم تصورات التحليلية انطلاقاً من العقل الباطن، وعلاقته الجدلية، واللغوية بالوعي ما أسهم في إضاءة محتوى النص والكشف عن مضمونه بتوضيح قوانين تكوينه؛ لإدراكه أنّ هناك مستوى آخر من المعنى يفارق مستوى المعنى الحاصل من تفاعل العلامات اللغوية مع معاني النحو، وهو تنظير أسس له بتركيب مفهوم المنزلة مع مفهوم (تمثيل ولم يتكلم به). وهو نوع من تأسيس المعرفة والعلاقة مع الخارج، ولكن انطلاقاً من الداخل، إذ يتمّ انتقاء المناسب من الألفاظ للتعبير عن المعنى المقصود في محاولة ربط المعاني الذهنية برموز حسية حيث تتحوّل تلك المعاني إلى أشكال لغوية وهو ما يحيل عليه قول سيبويه "لأنّ المعنى واحد"، و"المعنى على غير ذلك"، و"كما أنّ معنى..." فكانت منهجيته في التركيز على المعاني الذهنية والوجود الذهني - بوصفه مرحلة تسبق الكلام عبر اللغة نفسها - طريقة واعية تعكس فيها ملكة الخيال أثراً في ترتيب المعاني وتركيبها، وإحداث التناسب بينها؛ فلا تكون المعاني في الذهن مجرد انعكاس للمدركات، بل هي عامل جوهري في التفسير.

ويحتكم سيبويه إلى موضع آخر في كتابه ليكشف لنا أنّ سبيل التمثيل تحوّل إلى الجانب الدلالي من أجل البحث عن تركيب أصل للألفاظ يُكوّن بناءها العميق، فيقول: ((وكأنّ قوله عمرك الله وقعدك الله بمنزلة نشدك الله وإن لم يتكلم بنشدك الله ولكن زعم الخليل -رحمه الله- أنّ هذا تمثيلٌ يمثّل به)).^(٣٤) فالمصادر (عمرك الله)، و(قعدك الله) دخل على تركيبها معنى اليمين المفهوم من التمثيل بـ"نشدك الله" بمعنى (نشدتك الله). فاليمين معنى كساهما به الاستعمال. وما محاولة التشبيه بين (عمرك الله وقعدك الله) إلا تبيان أنّ الأصل في التركيب غير ذلك.

فالقواعد النحوية العلمية في مفهوم (تمثيل ولم يتكلم به) بغض النظر عن مهمتها التفسيرية أو الوصفية، إنّما هي محاولة لفهم الإنجاز الكلامي عبر الكشف عن قوانين قبلية لظواهره، وصياغتها صياغة رمزية تكفل ثبات العلاقة بين الظواهر. وقد طبّق سيبويه رؤيته التحليلية بربط (التمثيل) بـ(المنزلة)؛ فهي تماثله بوصفها أداة للكشف عن نسق منطقيّ تفسيريّ لجملة من الأنماط المنجزة نطقاً لا تكون الغاية منها تقديم تفسير للظواهر فحسب بل لأنّها تعبّر بكيفية مرضية عن مجموعة من القواعد فتكون وظيفتها اقتصاد المجهود الذهني وإطراد النظام على الأنماط المنجزة.

هذا من جانب، ومن جانب آخر أنّ محاولة تفسير الظواهر بالكشف عن عللها يسمح بتوسيع معرفتنا عن طريق توقّع أنماط، أو التنبؤ بها. إذ يورد سيبويه نماذج يحلّلها في ضوء منهج موازن

(٣٤) كتاب سيبويه: ٣٢٣/١.

بين الهيئة الأصل والهيئة المستحدثة المتولدة ، مرتكناً إلى السيرورة المعرفية عند المتكلم كما في ((باب الترخيم في الأسماء التي كل اسم منها من شيئين كانا بائنين، فضم أحدهما إلى صاحبه، فجُعلا اسماً واحداً بمنزلة عنتريس وحلّوك، وذلك مثل حضرموت... ومثل عمرويه، فزعم الخليل-حمه الله- أنه تُحذف الكلمة التي ضُمَّتْ إلى الصدر رأساً، وقال: أراه بمنزلة الهاء))^(٣٥). ويُفهم من ذلك أن سيبويه ابتكر ضرباً من التجويز العقلي، تأتت موضعيته في الكتاب من رصف مفهوم المنزلة إلى جانب مفهوم التمثيل مستنداً لصواب الحكم المعياري بهما إلى اتحاد مقدمتين معياريتين:

- أولاهما: الانتقال المنظم المبني على الترابط وإمكانية البرهنة بين خطوات البحث، أي صحة العلاقات بين خطوات البحث بوصفها خطوات للبحث العلمي والتفكير السليم.

- وثانيتها: صحة المعلومة أي: صحة القانون أو القاعدة التي تضبط كل خطوة على حدة ((فالتفكير العلمي ينبغي أن يتصف بصواب المنهج وصواب المعلومة معاً))^(٣٦).

وترتفع نسبة طاقة التمثيل لاستيحاء لون آخر من الإجراءات الأسلوبية، يُقدّم فيه سيبويه وصفاً للشروط المكوّنة للصورة عبر الكيفية التي يستطيع بها تخيل شخص ما من دون وجوده، وهو تمثّل يقوم بإشباع الانتظارات المتولدة عن التعرف. وهي قراءة ذهنية سيبويهية ليست بسيطة، فقد نظر إلى الصورة المتخيّلة باعتبارها لحظة حيّة ليس لها أيّ موقع في مكان آخر إلا في تأملات الذهن.

وتلك مسألة نخالها عميقة في تفكير سيبويه، وهو يعمل على صياغة بنية تمثيلية، لا يمكن أن نراها في الواقع، بما يكسب هذه الصياغة طابعاً خاصاً للكشف عن مظاهر كلامية قد لا يلتقطها الإدراك المباشر، وهو ما يجعلنا نؤكد أن سيبويه ميّز بين الإدراك والتمثيل، إذ الإدراك يفترض على نحو قبليّ وجود الشيء، أمّا التمثيل فهو مرتبط استناداً إلى نمط تكوّنه إلى عنصر غائب غير معطى لا يمكن أن يظهر إلا بوجود النشاط التمثيلي، يدلك على ذلك قوله: ((انته يافلانُ أمراً قاصداً، إلا أن هذا يجوز لك فيه إظهار الفعل، فإنما ذكرتُ لك ذا؛ لأمتل لك الأول به؛ لأنه قد كثر في كلامهم حتى صار بمنزلة المثل فحذف كحذفهم ما رأيتُ كالיום رجلاً))^(٣٧).

(٣٥) كتاب سيبويه: ٢/٢٦٧.

(٣٦) التفكير العلمي في النحو: ١٨.

(٣٧) كتاب سيبويه: ١/٢٨٤.

ويُنتج من هذه المحاولات التشييدية لمخطط العناصر المعرفية للنظرية النحوية حضور شيء لم يكن موجوداً في تلك اللحظة، ويعمل التمثيل على استحضارها. وبراعة ما يقدمه سيبويه هنا اعتماده تقديم عناصر يفتح بها الوعي على الموضوع، على الرغم من أنها ليست عناصر داخل الوعي. وهو ما يقود إلى تكوين هيئة دلالية للنصوص يُشرك فيها سيبويه متلقيه بتحقيق البنية التي تقدّم له من أجل الكشف عن المعنى، وإرساء دعائم إبلاغ ما، وهو أفق واسع تموضع ضمن منظور معرفي سيبويهيّ انطلاقاً من استحضاره أفكار الآخرين؛ وهو مسلك يضع سيبويه نفسه بموضع صاحب السليقة الذي لم تطرأ على سليقته ما يكدرها؛ ومن ثمّ كانت قوة من قوة الكتاب وحضوره ودعمه للعربية ونعني بذلك استحضار اللغة في سياقاتها الاجتماعية المنجزة^(٣٨). وتبدو معالجة سيبويه تلك في نصّه الذي قال فيه: ((ومما يُضمّر لأنّه يفسّره ما بعده، ولا يكون في موضعه مظهر، قول العرب: إنّه كرامٌ قومك، وإنّه ذاهبةٌ أمتك، فالهاء إضمار الحديث الذي ذكرت بعد الهاء، كأنّه في التقدير^(٣٩). وإن كان لا يُتكلّم به قال: إنّ الأمر ذاهبة أمتك، وفاعلة فلانة، فصار هذا الكلام كلّه خبراً للأمر، فكذلك ما بعد هذا في موضع خبره، وأما قولهم: نعم الرجلُ عبدُالله، فهو بمنزلة ذهب أخوه عبدالله. عمل نعم في الرجل، ولم يعمل في عبدالله، وإذا قال: عبدُالله نعم الرجل. فقيل له: من هو؟ فقال: عبدُ الله. وإذا قال: عبدُ الله، فكأنّه قيل له: ما شأنه؟ فقال: نعم الرجل))^(٤٠). فالسؤال هنا ليس له قيمة وصفية بقدر ما له من قيمة حجاجية، ففعل السؤال والجواب يعكس هاجس اللغة، فسبويه يريد أن يضمن التفاعل واستمرارية التخاطب بينه وبين مخاطبه المتمثّل افتراضاً، فأزاح التمثيل هنا إلى المستوى الحوارى، حينما استنطق سيبويه مخاطبه المفترض من أجل الاهتداء والاسترشاد العلمي - العملي، على وفق سبل استدلالية متنوعة، تجرّ إلى الاقتناع برأي المحاور؛ ليكون ذلك أساساً يرتكز عليه سيبويه، وقد كمنّ عنده في بنية اللغة، ولم يكن صفة عرضية تميّزت بها أطروحاته، فاكتست طابعين:

- الأول: الطابع الاجتماعي، وهي تقنية سيبويهية بامتياز، إذ عمد إلى إبراز خطابية اللغة باستحضار مساهمات متكلميها لتحقيق أغراض معينة.

(٣٨) فاللغة العربية عند سيبويه: ((ذات بعد خطابي لعلّه كان قائماً بصورة فعّالة في أيام سيبويه، بيد أن كتب النحو التالية قد سلبت من النحو تعامله هذا مع اللغة الخطابية؛ وهذه الإشارة قد تتقضى رأي بروكلمان وغيره من أن الفصحى لم تكن يوماً لغة خطاب)) مفهوم الجملة عند سيبويه: ٢٤٤ في الهامش.

(٣٩) تعطي دلالة التقدير هنا دلالة التمثيل نفسها، يدلك على ذلك قول سيبويه " وإن كان لا يتكلّم به ".

(٤٠) كتاب سيبويه: ١٧٦/٢-١٧٧، وينظر منه ٣٠٨/٤.

- والأخر: الطابع الجدلي القائم على الإقناع. ولما كان الإقناع لبّ العملية الحجاجية، بوصفه أثراً مستقبلياً يرجى تحققه بعد التلّفظ بالخطاب، فقد كان من بين الوسائل المستعملة في عملية الإقناع المتميّز بتوظيف التفكير في ثنايا عملية التواصل.

فثمة خيط رهيف شفاف يفصل بين الحالتين: الحالة الذهنية، وهي حالة نفسية تجعل وجود الصور في الأذهان حالة تجريدية، لم تتشكّل بهيأة الدال والعبارة. والحالة الثانية: حالة الفهم، وهي حالة عقلية، ولحظة معرفية تصير نتيجة ارتباط اللفظ بصورة المعنى. وتمثّل رؤيته هذه وقفة مهمة في تأمل الظاهرة اللغوية، وعمل النفس، والعقل معاً فيها لتشكيل العملية الإدراكية والمعرفية.

يُستقرئ مما تقدّم أنّ الخيال لم يكن نشاطاً عقلياً فحسب، بل نجده عند سيبويه نشاطاً فعّالاً يبتكر صوراً جديدة لتنميط الجمل ويقوم علاقات بين أشياء لا يربطها في الظاهر أدنى مشابهة. ومن ثمّ يمكن القول أنّ سيبويه اتّجه بالمنزلة نحو مخيلة الإبداع بتجاوز اللغة وحدود الواقع، فيستهدي إلى المعنى عن طريق تحريك الذهن عبر معالجة ديناميّة وإبداعية.

المبحث الثالث

الأساس التداولي في استعمال المنزلة

يكتمل الفضاء الاستدلالي عند سيبويه بقيام لسانيات المحاور إلى جانب لسانيات الظواهر، من حيث إنّ الخصائص الصورية للنماذج تجعل بعضها ذا واقعية بكفايتها التجريبية. وننوّه بهذا الخصوص إلى فكرة القيمة القانونية التي تقدّم قولاً ما بما له من سلطة معينة ترتبط بصورة وثيقة بالفرضية. ومن هنا فإنّ مدار بحثنا سيكون ضمن المجال الخطابي الذي يتموضع فيه المتكلم والمخاطب باعتماد المنزلة وسيلة لتقديم الحجج، بما يؤدي إلى نتيجة معينة. فالحجاج بالمنزلة يتمثّل في سلسلة استنتاجية (متواليات الأقوال)، فتكون الحجة بالمنزلة في ضوء هذا الإطار عبارة عن عنصر دلالي يقدّمه سيبويه لصالح عنصر دلالي آخر بمختلف هيئاته (لفظ، أو جملة، أو مشهد، أو سلوك غير لفظي).

ولما كان فعل الحجاج يفرض على المخاطب نمطاً معيناً من النتائج بوصفه الاتجاه الوحيد الذي يمكن أن يسير فيه الحوار، فإنّ الأداءات الحوارية- المباشرة وغير المباشرة - جاءت في كتاب سيبويه متنوعة، تبعاً لتغاير العلاقات التخاطبية بالإفادة من المقام، فترى السبيل الاحتجاجي يترجّح فيه العمل على النظر.

إننا نقف على هذه الحقائق الحوارية الاستدلالية في الكتاب عبر (السؤال والمنزلة)؛ إذ يُعدّ استعمال أسلوب الاستفهام من الآليات اللغوية التوجيهية؛ لأنها توجّه المتلقي نحو محتواها للإجابة عنها. وقد أثر سيبويه أحياناً أن يعرض للمسائل في هيئة أسئلة وجّهها إلى الخليل تقوية لموقفه الحجاجي بسوق كلام من يحظى باحترام علمي؛ قال سيبويه: ((وسألته عن قوله: ما تدوم لي أدوم لك، فقال: ليس في هذا جزاء، من قبل أن الفعل صلة لما، فصار بمنزلة الذي، وهو بصلته كالمصدر، ويقع على الحين كأنه قال: أدوم لك دوامك لي. فما ودمت بمنزلة الدوام، ويدلّك على أن الجزاء لا يكون ههنا أنك لا تستطيع أن تستفهم بما تدوم على هذا الحد))^(٤١).

يستعين سيبويه بسؤال الخليل لا لمجرد الاسترشاد، فتعزيز الجواب بسرد الأدلة هو ردّ لاعتراض أو أشكال قد يُثيره جوابٌ مثل (ليس في هذا جزاء)؛ لأنه بمنزلة (الدوام). فالجزاء لا يقع في الأسماء ويربطه بالاستفهام قائلاً: ((أنك لا تستطيع أن تستفهم))؛ لأنّ الأصل فيه أن يدخل على الأفعال.

لقد بنى سيبويه نصّه في صورة استدلالية طوى فيها مقدّمات للوصول إلى نتيجة أنه لا يجوز الجزاء ههنا، مسخراً الاستفهام كآلية لبلوغ القصد من الخطاب، وتتبعث المنزلة من نصّه لتكون بمثابة معادل موضوعي في ذهن المحاور، لما يدور من تساؤل في ذهن المتلقي.

وتترآى مسألة تتعلّق بالطبيعة المقصدية للسؤال، تكمن في أنّ سيبويه قد يوظّف الاستفهام لا لينتظر إجابة من المتلقي، وإنما لحصول التوجيه في مخاطبه، والنظر في المسائل التي عرضها عليه، وهي متصلة بخدمة المقصد الذي أراده، قال سيبويه: ((وتقول: أين ترى عبدالله قائماً؟ وهل ترى زيدا ذاهباً؟ لأنّ هل وأين كأنك لم تذكرهما؛ لأنّ ما بعدهما ابتداء، كأنك قلت: أترى زيدا ذاهباً؟ وأتظنّ عمراً منطلقاً؟ فإن قلت: أين وأنت تريد أن تجعلها بمنزلة فيها إذا استغنى بها الابتداء، قلت: أين ترى زيدا، وأين ترى زيدا))^(٤٢). ويعدّ هذا الإجراء بتطويع مفهوم المنزلة مع الاستفهام في بناء الخطاب ضرباً من الإبداع؛ لإدراكه أنه أمام لغة طبيعية وليست لغة صورية. وهو مسلك حصيف في بيان الأثر الإسنادي للاستفهام ومنزلته في تكوين الجملة وإن لم تكن وظيفته الإخبار، بقياسه الى الجار والمجرور الدال على الظرفية (فيها).

(٤١) كتاب سيبويه: ١٠٢/٣.

(٤٢) كتاب سيبويه: ١٢١/١، أي: على الإلغاء والإعمال، كقولك: " قائمٌ ظننتُ زيداً"، و" قائماً ظننتُ زيداً ". وترى هنا معترضة بين المسند والمسند إليه في الجملة الأولى، وهي عاملة في زيد في الثانية.

ويمثّل قانون الإضافة أحياناً قيمة جوهريّة، فنضيف عبره اضطلاع المحاور للقيام بوظيفتين في الوقت نفسه، فيكون مرة عارضاً، ومرة معترضاً مُنشأً معرفةً تناظريةً، وطريق هذه المرتبة حمولة الاستفهام والمنزلة. فيتألق مسلك سيبويه باستعمالها جدلاً في نصّه إذ يقول: ((وإنّ زعم زاعم أنّه يقول: مررتُ برجلٍ مخالطٍ بدنيّه داءً، ففرّق بينه وبين المنون. قيل له: ألسنتَ تعلم أنّ الصفة إذا كانت للأول فالتتوين وغير التتوين سواءً، إذا أردتَ بإسقاط التتوين معنى التتوين، نحو قولك: مررتُ برجلٍ ملازمٍ أباك، ومررتُ برجلٍ ملازمٍ أبيك، أو ملازمك. فإنّه لا يجد بُدّاً من أنّ يقول: نَعَمْ. وإلاّ خالف جميع العرب والنحويين، فإذا قال ذلك قلت: أفلسنتَ تجعل هذا العمل إذا كان منوناً، وكان لشيءٍ من سبب الأول، أو التبس به بمنزلته إذا كان للأول؟ فإنّه قائل: نَعَمْ. وكأنك قلت: مررتُ برجلٍ ملازم، فإذا قال ذلك، قلت له: ما بال التتوين وغير التتوين استويا حيث كانا للأول، واختلفا حيث كانا للآخر، وقد زعمتَ أنّه يجري عليه إذا كان للآخر كمجراه إذا كان للأول...))^(٤٣).

قد يقتضي الجانب التعليمي عند سيبويه الردّ على بعض القضايا باستعمال ألفاظ من قبيل "يقول - قيل - قائل... " التي تُبنى على اعتراضات مفترضة من قبل معترض هو نفسه العارض، فيقدّم أدلته وحججه على تلك الاعتراضات مستدرجاً متلقيه إلى مجاراته وإلاّ أتهم بمخالفته جميع العرب والنحويين حتى ينساق لما أراده قائلًا: (نَعَمْ). وهذه الطبيعة البنيوية للجواب الراجعة إلى طبيعة المخاطب، احتاجت من المجيب أن يقدّم عدداً من المقدمات تكفي لحصول الفهم والإدراك. وهو مبدأ تتحكم به مقتضيات التداول فالمقاصد لها أطرها في ذهن سيبويه، يتمّ توصيلها إلى المتلقي عن طريق مراعاة اللغة، ما يُظهر أهمية المخاطب لدى سيبويه فيتجاوز بالإسناد الوظيفة النحويّة إلى المعيار التداولي، بتوظيفه لضمير المخاطب (أنت) مع الفعل (تعلم) ليجسّد به توأماً مع مخاطبه، ويشي بالقول إنّه بنى خطابه في الكتاب على ملمح مقاصدي افتراض فيه وجود متلقٍ لرسالته، وهو ما يظهر في استعماله ضمير المخاطب (أنت) المضمّر في الفعل (تعلم). وكثُر ما استعمل سيبويه الأمر من هذا الفعل؛ إذ يرى المتمعن أنّ خصوصية سيبويهيّة تأنت له من بين الصيغ الفعلية؛ لأنّ هذا الفعل يصنّف ضمن الأفعال التوجيهية، فيخرجه سيبويه عن دلالة الأمر إلى قصد إعمال الذهن عند المتلقي إليه، وتقدير الحكم له من دون ممارسات وجوب الأمر عليه، فالإخبار يكون بأسلوب العرض لا الوجوب؛ ليُحدِث التأثير في المتلقي ومن ثمّ انجاز فعل معين في مرحلة تالية إذ يقول:

(٤٣) كتاب سيبويه: ٢/١٩-٢٠.

((واعلم أنّ من العرب مَنْ يرفع سلاماً، إذا أراد معنى المباراة كما رفعوا "حنان". سمعنا بعض العرب يقول لرجل: لا تكوننّ مني في شيء إلاّ سلاماً بسلام، أي: أمري وأمرك المباراة والمشاركة، وتركوا لفظ ما يرفع، كما تركوا فيه لفظ ما ينصب؛ لأنّ فيه ذلك المعنى؛ ولأنّه بمنزلة لفظك بالفعل))^(٤٤).

ترتسم مظاهر التضامن في النص أعلاه بين طرفين هما: فعل الأمر (اعلم) ومفهوم (المنزلة) بوصفهما مكونين حجاجيين تُعرض عبرهما الفكرة ويشرحها بتمعن، موجهاً إياها نحو المتلقي، فيتحقق التواصل والانتفاع بين الطرفين. ويعي أبو بشر ما يمكن أن يوجهه إلى قوانينه المبنية على الاستقراء من انتقاد فينصُّ على وثاقها بقول: "سمعنا بعض العرب ". فالنص على معايير السلامة حماية للقاعدة النحوية، ومثله قوله: ((اعلم أنّ ناساً من العرب يجعلون هلمّ بمنزلة الأمثلة التي أخذت من الفعل يقولون: هلمّ وهلمّي وهلمّا وهلمّوا))^(٤٥).

كانت المنزلة رابطاً حجاجياً لإحداث موازنة بين لفظ هو موضع نظر ببنيته، لا بمعناه وقد سلكت بعض العرب فيه مسلكاً خالفوا فيه بقية نظائره من أسماء الأفعال فاستدعى سببويه هذا الرابط في إعادة النظر إلى هذا المسلك الذي يشبه طريقة إسناد الضمائر إلى الأفعال؛ ليتبع هذا المحور النقابلي خطاباً موجه إلى متعلم.

مما تقدّم يمكن أن يتقوّم مفهوم المنزلة في ظلّ الخطوط الآتية لعرض الآراء، وهي:

- ١) مخاطبة برهانية: يدور الكلام فيها بين معلم ومتعلم.
- ٢) مخاطبة جدلية: يعرض فيها المتحاوران للآراء الذائعة والمشهورة، ويحاولان الكشف عن التناقضات التي تتضمنها لحلّها معاً.
- ٣) مخاطبة مغالطية: يوهّم فيها سببويه محاوره بأنّه انطلق من مقدمات يقينية، إلّا أنّه يستبطن فيها أموراً مغايرة لما يظهره، فيعود إلى تفنيدها.

نتائج البحث:

عول سببويه كثيراً على مفهوم (المنزلة) على نحو يُلفت الانتباه، مما جعلنا ننتبع توظيفه لها عبر نصوص الكتاب لنخرج بنتائج أبرزها:

١- لقد كانت المنزلة نفساً حجاجياً يتمّ بها الاستدلال على المسائل اللغوية.

(٤٤) كتاب سببويه: ٣٢٦/١، وينظر ٣٨١/١، و٤٥٧/١، و١٢٤/٢، و١٣٩/٢، و٢٥٢/٢.

(٤٥) كتاب سببويه: ٢٥٢/١.

- ٢- تجلى الإبداع الحقيقيّ السيبويهيّ في رؤيته إلى المنزلة من منظور كونها تقنية مركبة تعتمد الرمزية في ترجمة ما في التفكير الباطن وملحه المميّز للرمز أنّ معناه لا يتغيّر من جانب، وتعتمد التداعي من جانب آخر في أنّ التثبيت للمعنى لا يستبعد إمكانية تعدّده.
- ٣- المنزلة بناء لغويّ شيده خيال سيبويه، فتجاوزت عنده وظيفتها الأولية (المشابهة) إلى أنّ تكون إطاراً تقع فيه الأحداث، فهو يقيم بها قضية بعد قضية؛ ويخوض في مسائل اللغة عرضاً وتحليلاً واستنتاجاً في مقاربات بين العقل والنقل تتمّ عن بعد نظر ودقة ملاحظة.
- ٤- استعمال سيبويه للمنزلة بهدف الإقناع بناء على اقتراحات سابقة بشأن المعرفة اللغوية والإدراك المتوقع وعناصر السياق (المتكلم والمخاطب والمقام). فالتوصل إلى إدراك المقصد الحقيقيّ حينما يخرج القول عن معناه الحقيقيّ، وعن تركيبه الأصل، لا بدّ فيه من مراعاة هذه الأمور.
- ٥- لقد كانت المنزلة مفهوماً:
- أ- للاكتشاف: فاستعان بها سيبويه في تطبيق الإجراءات المحددة على النصوص اللغوية بصفة آلية مكنته من بناء نحو اللغة.
- ب- للتقرير: بوصفها طريقة عملية استعملها سيبويه في بيان مقبولية التراكيب والألفاظ المقترح للمادة المعروضة.
- ت- للتقييم: فأمام المادة اللغوية ووصفها أبان لنا سيبويه عن معرفة النحو الأليق عبر رصد ظواهره.

ثبت المظان

- [١] القرآن الكريم.
- [٢] أبو علي الفارسي، د. عبد الفتاح شلبي، القاهرة، الناشر جامعة القاهرة، ١٤٢٨ هـ .
- [٣] الأسس الإبتيمولوجية والتداولية للنظر النحوي عند سيبويه، د.أدريس مقبول، عالم الكتب الحديث، عمان، ط١، ٢٠٠٦م.
- [٤] الإيضاح في علل النحو، الزجاجي(ت٣٣٧هـ)، تحقيق د.مازن المبارك، دار النفائس، بيروت، ط٤، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م.
- [٥] البحث الدلالي في كتاب سيبويه، د.دلخوش جار الله حسين، أطروحة دكتوراه - كلية الآداب - جامعة بغداد.
- [٦] التعليل الصوتي عند العرب في ضوء الدرس الصوتي الحديث، قراءة في كتاب سيبويه، د.عادل نذير بيبري الحساني، نشر ديوان الوقف السني، بغداد، ط١، ١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م.

- [٧] التفكير العلمي في النحو (الاستقراء- التحليل، التفسير)، د.حسين خميس الملح، دار الشروق والتوزيع، عمان ، الأردن ، ٢٠٠٢م.
- [٨] الخصائص، ابن جني(ت٣٩٢هـ) تحقيق: محمد علي النجار، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ط١٩٩٠، ٤م.
- [٩] الخطاب والحجاج، أبو بكر العزاوي ، الدار البيضاء، ط١، ١٤٢٧هـ-٢٠٠٧م.
- [١٠] ديوان الفرزدق، ضبط وشرح: إيليا الحاوي، منشورات دار الكتاب اللبناني ومكتبة المدرسة، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٨٣م.
- [١١] سلطة الكلام وقوة الكلمات(بحث)، أبو بكر العزاوي، مجلة المناهل، منشورات وزارة الثقافة المغربية، العدد٦٢.
- [١٢] الشاهد الشعري في النقد والبلاغة (قضايا وظواهر ونماذج)، عالم الكتب الحديث، اريد، عمان ، ٢٠١٠م.
- [١٣] شرح الأشموني على ألفية ابن مالك، أبو الحسن الأشموني، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط١، ١٣٧٥هـ-١٩٥٥م.
- [١٤] علم المعاني، د.عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت ١٩٧٤م.
- [١٥] عناصر النظرية النحوية في كتاب سيبويه محاولة لإعادة التشكيل في ضوء الاتجاه المعجمي الوظيفي، سعيد حسن بحيري، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٨٩م.
- [١٦] كتاب سيبويه، سيبويه(ت١٨٠هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، عالم الكتب، بيروت، ط٣، ١٤٠٣هـ.
- [١٧] كليات المعرفة اللغوية عند الفلاسفة المسلمين في ضوء اللسانيات، أطروحة دكتوراه، كريم عبيد عليوي، الجامعة المستنصرية، كلية التربية، ٢٠١٢م.
- [١٨] اللسانيات والبيداغوجيا نموذج النحو الوظيفي(الأسس المعرفية والديداكتيكية)، علي آيت أوشان، ط١، مطبعة النجاح الجديدة، دار الثقافة، الدار البيضاء، ١٩٩٨م.
- [١٩] مدخل إلى علم اللغة، لوريتو تود، ترجمة: د.مصطفى التوني، منشورات الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٤م.
- [٢٠] مغني اللبيب عن كتب الأعراب، ابن هشام(ت٧٦١هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٨م.
- [٢١] المفصل في تاريخ النحو العربي، د.محمد خير الحلواني، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م.
- [٢٢] مفهوم الجملة عند سيبويه، د.حسن عبد الغني الأسدي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م.

- [٢٣] المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع، أبو محمد الأنصاري السجلماسي، تحقيق: عادل الغازي، مكتبة المعارف، الرباط، ط١٤٠١هـ، ١٩٨١م.
- [٢٤] منهاج البلغاء وسراج الأدباء، حازم القرطاجني، تحقيق: محمد حبيب الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت ط١٩٨٦، ٣م.
- [٢٥] نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث، د.نهاد الموسى، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م.